الصغير أدريس

موت بلواس

قتل بلواس في الظهيرة على قارعة الطريق وفي يده معول مترب ... سجلت الجريمة ضد مجهول في ملفات الشرطة الضخمة المليئة بالغبار والعنف ونسيج العنكبوت ، واستدعي الشهود بعد منتصف الليل ليدلوا بشهاداتهم ... قالت « للاطامو » :

ـ رأيت جنيا اسود ينزل من السماء غاضبا مزمجرا يدخن سيجارة من النوع الجيد . عقدت الدهشة لساني فلم استطع البسملة والشهادة . كان يحمل في يده سيفا ضخما يلوح به ذات اليمين وذات الشمال . كنت اظن انه يقصدني فانبطحت ارضا . لكنه اتجه نحو الى بلواس واشتبك معه في عراك مهول مخيف . وهكذا قتل بلواس في الظهيرة على قارعة الطريق وفي يده معول مترب .

بعد المداولات صدر حكم المحكمة :

ـ تحكم المحكمة بالاعدام على الجني الاسود غيابيا .

ثم انفضت الجلسة وتساقط المطر في عيون الناس وفي آذانهم فاستيقظوا من سباتهم .

تحت فنطرة الوادي الصغير بكت النساء وهن ينظفن الثياب وصوفة اكباش العيد ، وغنى الراعي على مزماره القصبي : آه يا اخوتي البعيدين عن الديار غيابكم حضور . اسماؤكم في القلب والدم وذرات الغبار . وجوهكم الصغيرة ما زالت تضحك ، وكلماتكم ترن في الاذان مع كل هبة نسيم وشعاع شمس . آه يا بلدي العزيز يا اجمل البلدان . اه يا بلدي الاخضر يا بلدي الاسمر يا وطني الغريب ، احب فيك سنابل القمح وشقائق النعمان وسمرة الارض ووجه نعيمة . هنا زغردت امي ليلة عرسي وبكت . هنا رقص اصدقائي (الهيث) وفرفعوا البنادق . هنا بترت ساق بلواس وفي يده معول وقطعة حجر . هنا كان (واد سبو يجري بالدم) هنا اثارت سنابك خيولنا النقع وشذبت سيوفنا اعناق جيوش الغزاة التتريين . هنا كبت جيادنا وفي عيوننا لم يزل بريق النصر . هنا انتصرنا . هنا وقفنا . هنا سننتصر .

قتل بلواس وفي يده معول مترب . ومر به اطفال المدارس فسجلوا اسمه في الدفاتر وعلى الجدران واوراق الانشاء . تغنوا باسمه في الساحات وملاعب كرة القدم . رسموه على قمصانهم وحفروه في ذاكراتهم . ثم غضبوا . ثم مضوا يصطادون العصافير والفراشات الملونة وسط الحقول الخضراء ونباح الكلاب . وضحك الجني الاسود شاربا نخب الانتصار وفي يده سيجارة من النوع الجيد . واستباح جسد عروس البحر للغزاة التتريين واطعم الكلاب والمهرجين ، ثم غنى فاطرب الحاضرين وامطرهم بالدنانير . زه . فأعطاه الف دينار . السماء اليوم تمطر ذهبا للغزاة التتريين . السماء اليوم تمطر النار والوحل على حيطان الصفيح والاخشاب والطين الاحمر . ونقف في اخر الطابور الطويل المستطيل ثلاثة اشهر يلسعنا السوط والكرباج وشتائم الزناة . وتبكي نساؤنا بدموع من الدم الاسود . نقف وفي ايدينا اوراقنا . وهذا كيس دقيق اتى من بلاد بعيدة . سنصنع منه سروالا او دثارا او وسادة . والله فضل بعضكم على بعض في الرزق . وفي الليل نستجدي قطع الخبز اليابسة وتطوح بنا طوائح الزمن الى اطراف المدينة البعيدة . نبحث في القمامات عن قطعة قماش تصلح فتيلا للقنديل الزيتي . ويقرفص صغارنا ملتصقين الى بعضهم باجسادهم الغامرة طلبا للدفء . ونحكي لهم للمرة الالف قصة (الغالية بنت منصور ، القاطعة سبع بحور) وما وقع لها مع الشاب الشجاع فيصاب اطفالنا بالغثيان ويسالون :

ـ متى نذهب الى المدرسة ؟ متى نمتلك المحفظة والقلم والدفتر ؟

ـ اووه . قلنا لكم مرارا . اذا تعلم الكل فمن سيزرع الارض ومن سيشتغل حمالا او حطابا او ماسح احذية ؟

وينام صغارنا وفي عيونهم دموع الحقد . ويجفل النوم من اعيننا نحن .

قتل بلواس في الظهيرة وفي يده معول مترب ، ومر الجني الاسود بين بيوت الصفيح والاخشاب متبخترا ضاحكا مدخنا سيجارة من النوع الجيد . اختفى الناس وراء ابواب الدور واحكموا اغلاقها بالمفتاح والمزلاج . وفي الغد تقدموا بشكاية مبصومه الى عميد الشرطة ضد الجني الاسود . غضب عميد الشرطة البدين وجهل فوق جهل الجاهلين ثم صاح والغليون بين انامل يده السمينة :

ـ انتم قوم جهلاء . الا تقرؤون الجرائد ؟ الا تنصتون الى نشرات الاخبار الاذاعية والتلفزيونية الموجزة والمطولة والمعلق عليها باسهاب والمبتوتة باللغة العربية الفصحى والدارجة والالوان الطبيعية . لقد اعدنا محاكمة الجني الاسود وثبتت براءته لان الشاهدة « للاطامو » تعاني من نقص في البصر ومصابة بمرض عقلي .

اسقط في يد الناس وتبادلوا فيما بينهم نظرات بلهاء . وكعقاب لهم لاتهامهم رجلا شريفا وشهادتهم شهادة الزور ، اصدر في حقهم قرار منع التجول ابتداء من غروب الشمس الى شروقها مع خصم نصف ما يأخذونه من دقيق كل ثلاثة اشهر مقابل عملهم في غرس البنفسج والورود في الحدائق العمومية .

وفي الصباح الباكر ، هب الناس مفزوعين من نومهم وهم يفركون عيونهم المنتفخة المحمرة . رأوا زوجة بلواس خارج بيتها سافرة لاول مرة تولول نادبة خديها ممزقة ثيابها . وحين تحلقوا حولها (رمت عليهم العار) . مادت الارض بشدة تحت اقدام الرجال ذوي اللحى والشوارب الكثة . تراجعوا خطوات الى الوراء . تمنوا ان تبتلعهم الارض السابعة . رفعوا اعينهم الى بعضهم في حذر . اصابهم دوار شديد في رؤوسهم . حوصروا فاصبحوا امام الامر الواقع ولم يستطيعوا الفرار . زكمت انوفهم رائحة الارض وسنابل القمح فمضوا ينفضون الغبار عن بنادقهم وسيوفهم الصدئة .

البيضاء (المغرب)